

شخصيات من المحرمين الشريفين

(٤١)

عبادة بن الصّامت الأنصاري

محمد سليمان

في عالمٍ أفسده الظلمة والطغاة؛ فانقلبت فيه الموازين، واختلت فيه الأحكام... وتمكّن الجهل والتجهيل من أبنائه؛ حتى صاروا أداة لئنة طيعة بأيدي من يتحكّم بهم... حينها يُصبح الوضع فيه شريفاً، والخائن أميناً، والكذوب صدوقاً، بل وسفهاء الأمة هم أهل الحلّ والعقد، والحكم والأمر والنهي في قضاياها، ويزداد الواقع سوءاً حين يساند فقهاء السلطة أولئك الظلمة في سوءهم وفسادهم، وفي تهية الأمة؛ لتقبلهم والرضا عنهم،

بل والاستماتة دون عروشهم، واتهام كل من لم يكن مالياً لهم بالمروق من الدين، وبإشاعة الفتنة في الأمة... وكلها عوامل تساهم في تضليل الناس وتجهيلهم، وتضييع الحقوق، وانتشار الفساد بينهم... والتصدي للصالحين، وإبعادهم عن أداء دورهم في الساحة، حتى تخلو لغيرهم من أهل المصالح والأهواء...

وقد نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «سيأتي على الناس سنواتٌ خداعاتٌ؛ يصدَّقُ فيها الكاذب، ويكذَّبُ فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة!» قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه في أمر العامة..

إنه لأمر بالغ الخطورة حيث السفهية يتكلم، وفي يده أمر الأمة، في حين العاقل لا يجد له مكاناً بين أفراد أمته، وبالتالي يعمُّ الظلم في الأرض، ويصبح ظاهرةً، ويتسع الإفساد وتتجذّر ثقافته، فيترك ضرراً عظيماً على البلاد والعباد؛ على الحرث والنسل، ويشكل خطورة لا فقط على معيشة الناس وإدارة شؤونهم، بل على عقائدهم وأخلاقهم.

وهذا ما يجده القارئ والمتابع في بلاد الشام ذات الثراء الواسع، والأراضي الخصبة، والنعم الكثيرة، فمنها يأتي الخراج، ومنها فتحت البلدان، فجلبت إليها الغنائم، حتى غدت موضع قوة، ومصدر ثروة كبيرة، لكنها وتحت إمرة معاوية ابن أبي سفيان، غدت مصدراً لبناء سلطانه، وأداةً لانتشار طغيانه، يهب لمن يشاء، ويمنع عمن يريد، يصدق على أناس، فيشتري ضمائرهم، ويضمن صمتهم، ويجني موافقهم، يُقرب المؤيدين له، ويلاحق المعارضين له، ويمنع عنهم العطاء، فتمتعت طوائف كثيرة بحكمه، وحرمت أخرى...

وكان حقاً ما نطق به أمير المؤمنين وإمام العدل والمتقين عليّ عليه السلام: «... ولكنتي آسى، وفي قول: ولكن أسفاً يعتريني، وحرزناً يخامرني، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

وفجأراً، فيتخذوا مالَ الله دُولاً، وعبادَه حَوْلًا، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً...^١ فأدّت سياسة معاوية إلى الظلم والجور وانتشار الفساد، وإلى الابتعاد والانحراف عن الإسلام؛ حتى شكّلت ظاهرة سيئة، ومنهجاً ظالماً، وانقلاباً سريعاً وصارخاً على مبادئ التنزيل العزيز والسنة النبوية الشريفة، وعلى ما يحملانه من مشاريع إصلاح وعدل، ودعوة سلام وأمان.. فمشروعه في الحكم أمرٌ مضادٌ لرسائل السماء، ولدعوة جميع الأنبياء والرسول ﷺ، الذين اصطفاهم الله تعالى، وبعثهم كافةً ورحمةً للناس، بإخراجهم من عبادة العباد وذّلها إلى عبادة الله تعالى وعزّها، ولنشر رسالة الإصلاح في الأرض، وما يثمر عنها من سعادة وخير بين أهلها.. وقد تبعهم الصالحون في استمرار دعوتهم، وفي مقاومة أي انحراف عن مبادئ السماء وقيمها، وفي التصدي لأي إفساد يقع في المجتمعات من حكّامها، أو من المتنفذين فيها ومن أهل المصالح والأهواء...

فكم هو ذكر عظيم للإنسان حين يقف موقفاً شجاعاً منبتقاً من عقيدته؛ لا من هوى متبع، ضدّ كل شكل من أشكال الفساد والامتهان والاستبداد، وحين يرى أمته حكاماً ومحكومين سادرين في غيهم وانحرافهم عن الدين ومبادئه وقيمه، فيقول كلمة الحقّ ويعمل بها..

فانبرى عددٌ من الصحابة، ممن ذاقوا قيم الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ لمقاومة سياسة معاوية في الشام، والتصدي لها تنبيهاً للناس، وتحذيراً لهم من مخاطرها.. وكان أبرزهم الصحابي الجليل أبوذر الغفاري؛ والصحابي عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، الأنصاري

١. انظر نهج البلاغة؛ د. صبحي الصالح : ٤٥١ ، ٦٢ من كتاب له؛ وشرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد

الخرزجي.

وأُمُّ قُرَّةُ الْعَيْنِ بِنْتُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْعَجْلَانِ بْنِ زَيْدِ بْنِ غَنَمِ بْنِ سَالِمِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ. فَهِيَ أُمُّ لَهُ وَلَأَخِيهِ الصَّحَابِيُّ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ..

وأوس هذا كان من سابقي الأوس والخرزج إلى اعتناق الإسلام، وقد آخى النبيُّ بينه وبين مرثد بن أبي مرثد الغنوي، ونال وسامي الصحبة المباركة لرسول الله ﷺ والجهاد في مشاهد الرسول ﷺ كبدر الكبرى وأحد والخندق وحنين وغيرها.. وكان الرجل شاعراً، وله هذا القول:

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدِّي أبوه عامر ماء السماء

وبقي بعد النبيِّ دهرًا، وذكر أنه أدرك عثمان بن عفان، وتوفي في أيامه، وله خمس وثمانون سنة، وفي قول مات سنة ٣٤ بالرملة، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. وهذا القول قد لا يخلو من اشتباه.. فهو نفسه ذكره عن أخيه عبادة؛ تاريخ وفاته ومقدار عمره. وكان لأوس من الولد الربيع وأُمُّه هي: خولة أو حُوَيْلَة - مصغراً - بنت ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف... أو هي جميلة بنت مالك بن ثعلبة أو بنت دُلَيْجِ مصغراً، وهي بالتالي من بني عوف بن مالك بن الخرزج، من بطون الأنصار، فهي العوفية، وربما قالوا: الخزرجية، وهي التي عرفت، وهذا هو المهم في حياتها، بأنها: المُجَادِلَةُ التي بكيتُ وأبكتُ مَنْ حوَّها، وهي التي إذا ما سُئِلتْ قالت: فيَّ والله، وفي أوس بن الصامت، أنزل الله صدر سورة المجادلة.

وكان ذلك حين اشتكته لرسول الله ﷺ في قصة الظهار، والظهار يقع بقول الزوج لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، والذي كان من الصيغ المعروفة بينهم في الجاهلية، فإذا قال الزوج لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي. حرمت عليه في عرفهم مؤبداً (طلاق

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

الجاهلية) وفي قول: تحرم عليه، ولا تطلق منه. وتبقى هكذا معلقة، لا هي حلُّ له فيقرها، ولا هي مطلقة منه، فتتزوج إن شاءت، وهو - بلا شك - نوع عنت لها وظلم وتعسف..

لقد كانوا هكذا يعملون في جاهليتهم، وبقي العمل به بعد الإسلام، وقد حدث هذا في بيت كلٍّ من أوس وزوجته خولة وهما مُسلمان، حين قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، فعَدَّ أولَ ظهار في الإسلام، وبسببه نزلت أحكام الظهار في الآيات ٢ - ٥ من سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَم مِّنْ تَعَطُّونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَلَّكُمْ كُنْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أَلَيْبُهُمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^١

فعنها؛ أنها، وبعد أن ذكرت: في والله، وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة! قالت: كنتُ عنده، وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقُهُ، فدخل عليَّ يوماً، فراجعتُه بشيءٍ فغضب، (أو فكلمني بشيءٍ، وهو فيه كالضجر، فرادتهُ فغضب)، فقال: أنتِ عليّ كظهر أمي! ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعةً، ثم دخل عليَّ، فإذا هو يريدني عن نفسي، (أو فراودني عن نفسي، فامتنعتُ منه، فشادني، فشادتهُ..) فقلتُ: كلا - والذي

١. سورة المجادلة ١ - ٥.

نفس خُويلة بيده - لا تخلص إليّ، وقد قلتَ ما قلتَ حتى يحكم اللهُ ورسولُهُ فينا بحكمه! فواثبي، فامتنعتُ منه، فغلبتُهُ بما تغلب به المرأةُ الشيخَ الضعيفَ، فألقيتُهُ عني. قالت: ثم خرجتُ إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثياباً، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسولَ الله ﷺ فجلستُ بين يديه، فذكرتُ له ما لقيتُ منه، وجعلتُ أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه! فجعل رسول الله ﷺ يقول لها كلما شكيت من زوجها: «يا خُويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه!» «زوجك وابن عمك، اتقي الله، وأحسني صحبته!» وكان مما شكته أيضاً كما في الأخبار؛ أنها قالت: يا رسول الله، أبلسى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك! وفي قول: إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فلما خلا سني... أو كبر سني، و رقاً عظمي، ظاهر مني.. أو... ونثرت بطني - أي كثر ولدي - جعلني عليه كأمه. فقال ﷺ: «ما أراك إلاّ حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، وإنه أبو ولدي وأحبُّ الناس إليّ!

فقال ﷺ: «ما أراك إلاّ حرمت عليه، ولم أؤمر في شأنك بشيء».

فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حرمت عليه».

هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي، اللهم، فأنزل على لسان نبيك. ولما لم تسمع من رسول الله ﷺ إلاّ أقواله تلك: تحولت شكواها إلى أسلوب آخر، حيث قالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فقال ﷺ: «ما عندي في أمرك شيء»، ثم قالت يا رسول الله: ما ذكر طلاقاً. وإنما هو أبو ولدي وأحبُّ الناس إليّ! فقال ﷺ: «حرمت عليه!»

وهكذا ظلت تراجع رسول الله ﷺ ولما لم تسمع من رسول الله ﷺ إلاّ أقواله تلك «حرمت عليه»، وعلمت أن الأمر كله لله تعالى، هتفت وشكيت إلى الله حالها، وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي، ووجدني، وشدة حالي، اللهم فأنزل على لسان

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

نبّيك! قالت: فو الله، ما برحتُ حتى نزل فيّ قرآن؛ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سرّني عنه، فقال لي: «يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك». ثم قرأ عليّ الآيات. هذا خلاصة ما جاء في أسباب النزول.

وأما عند المفسرين، فالشيخ الطبرسي بعد أن يذكر أن الاشتكاء لغة؛ إظهار ما بالإنسان من مكروه، والشكاية إظهار ما يصنعه به غيره من المكروه، والتحاور التراجع وهي المحاورة يقال: حاوره محاورة أي راجعه الكلام وتحاورا، قال عنتره:

لَوْ كَانَ يَدْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ أَشْتَكِي وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ مُكَلِّمِي

يقول: نزلت الآيات في امرأة من الأنصار ثم من الخزرج واسمها خولة بنت خويلد عن ابن عباس. وقيل: خولة بنت ثعلبة عن قتادة ومقاتل، وزوجها أوس بن الصامت، وذلك أنها كانت حسنة الجسم، فرآها زوجها ساجدة في صلاتها، فلما انصرفت أرادها، فأبت عليه فغضب عليها، وكان امرءاً فيه سرعة ولم!

فقال لها: أنت عليّ كظهر أمي. ثم ندم على ما قال وكان الظهار من طلاق أهل الجاهلية، فقال لها: ما أظنك إلا وقد حرمت عليّ!

فقالت: لا تقل ذلك وأت رسول الله ﷺ فأسأله، فقال: إني أجد أني أستحي منه أن أسأله عن هذا، قالت: فدعني أسأله فقال: سلبه.

فأتت النبي ﷺ وعائشة تغسل شقّ رأسه فقالت: يا رسول الله إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غانية ذات مال وأهل حتى إذا كلّ مالي وأفنى شبابي وتفرق أهلي وكبرت سني ظاهر مني وقد ندم فهل من شيء يجمعني وإياه فتعشني به. فقال ﷺ: «ما أراك إلاّ حرمت عليه». فقالت: يا رسول الله، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً وأنه أبو ولدي وأحب الناس إليّ! فقال ﷺ: «ما أراك إلاّ حرمت عليه، ولم أوامر في شأنك بشيء».

فجعلت تراجع رسول الله ﷺ وإذا قال لها رسول الله ﷺ: «حرمت عليه»،

هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي وحاجتي وشدة حالي اللهم فأنزل على لسان نبيك، وكان هذا أول ظهار في الإسلام.

فقامت عائشة تغسل شقَّ رأسه الآخر، فقالت: انظر في أمري جعلني الله فداك يا نبيَّ الله. فقالت عائشة: أقصري حديثك ومجادلتك، أما ترين وجه رسول الله ﷺ، وكان صلى الله عليه وآله إذا نزل عليه الوحي أخذته مثل السبات، فلما قضى الوحي قال: «ادعي زوجك»، فتلا عليه رسول الله ﷺ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا،﴾ إلى تمام الآيات. ولأنَّ عائشة، كما يظهر كانت حاضرة، فكانت هي الأكثر رواية لتفاصيل هذه القصة المؤلمة حقاً!

فقد ذكر الشيخ الطبرسي أنَّ عائشة قالت: تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إنَّ المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية البيت اسمع بعض كلامها، ويخفى عليَّ بعضه، إذ أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ..﴾. فلما تلا عليه هذه الآيات، قال له: «هل تستطيع أن تعتق رقبة»؟ قال: إذاً يذهب مالي كلُّه والرقبة غالية وإني قليل المال.

فقال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ فقال: والله، يا رسول الله إني إذا لم أكل ثلاث مرات كلَّ بصري وخشيت أن تغشى عيني! قال: «فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً»؟ قال: لا والله، إلا أن تعينني على ذلك يا رسول الله! فقال: «إني معينك بخمسة عشر صاعاً وأنا داع لك بالبركة»! فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، فدعا له البركة، فاجتمع لهما أمرهما!

وفي خبر آخر: قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كلَّ شيء، إني لأسمع كلام خَوْلَةَ بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه، أو سبحان من وسع سمعه الأصوات. كان بعض

١. مجمع البيان: الآيات . * اللَّمَمُ: الجنونُ، أو طَرْفٌ خفيف منه، يُلْمُ بالإنسان ويعتريه. مصادر اللغة .

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

كلام خولة يخفى عليّ، وسمع الله جدالها، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ؛ وهي تقول: يا رسول الله! أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني؛ اللهم إني أشكو إليك! فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية.

وقالت عائشة أيضاً:.. فلقد بكيتُ وبكى من كان في البيت رحمةً لها ورقةً عليها..!

وبعد أن ذكر التنزيل العزيز ذلك، وقبل أن يقرر أحكامه لهذه الحالة، ذكر في الآية:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾.

أي أن هذا الظهار قائم على غير أصل. فالزوجة ليست أمًّا حتى تكون محرمة كالأمّ. فالأمُّ هي التي ولدت. ولا يمكن أن تستحيل الزوجة أمًّا بكلمة تقال. إنها كلمة منكرة ينكرها الواقع. وكلمة مزورة ينكرها الحقُّ. والأمور في الحياة يجب أن تقوم على الحقِّ والواقع، في وضوح وتحديد، فلا تختلط ذلك الاختلاط، ولا تضطرب هذا الاضطراب...

الشيخ الطوسي :

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ﴾، أي الذين يقولون لنسائهم: أنت عليّ كظهر أمي، ومعناه إن ظهرك عليّ حرام كظهر أمي، فقال الله تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾، أي ليست أزواجهم أمهاتهم على الحقيقة ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، أي وليست أمهاتهم في الحقيقة ﴿إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾، من الأم وجداته. ثم أخبر ﴿وَأِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ﴾ أي أن القائل لهذا يقول قولاً ﴿مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ﴾، قبيحاً ﴿وَزُورًا﴾، أي كذباً؛ لأنه إذا جعل ظهرها كظهر أمه

١. في ظلال القرآن، لسيد قطب : الآيات .

وليست كذلك، كان كاذباً في قوله. ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾، أي رحيم بهم منع عليهم متجاوز عن ذنبهم. وفي ذلك دلالة على أن الله رحمها وغيرها من النساء؛ لرغبتها في زوجها بالتوسعة من جهة الكفارة التي تحلُّ بها.^١
ثم جاءت الآيتان الثالثة والرابعة لتبيننا ما يترتب على ذلك من الكفارة، وقد ذكرت كتب الفقه للظهار شروطاً وأحكاماً..

فاستوقفته طويلاً!!

كان ذلك منها؛ وقد مرَّ بها عمر بن الخطاب، في خلافته والناس معه على حمار فاستوقفته طويلاً ووعظته وقالت: يا عمر، قد كنتَ تدعى عُميراً، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمنين؛ فاتق الله يا عمر؛ فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب! وهو واقف يسمع كلامها؛ فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف؟! فقال: والله، لو حبستني من أول النهار إلى آخره لازلْتُ إلا للصلاة المكتوبة! أتدرون من هذه العجوز؟ هي خولة بنت ثعلبة؛ سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر؟!^٢

فعبادة بن الصامت، وكنيته: أبو الوليد. هو من أبوين خزرجيين، وقبيلة الخزرج إحدى قبيلتين كبيرتين وهما الأوس والخزرج، وكلُّ منهما كانا أخوين لأُمِّ وأب، فانبثقت منهما هاتان القبيلتان، وبعد هجرتهما من اليمن من سبأ، وشكَّلتنا وجوداً اجتماعياً كبيراً في يثرب وما حولها، وأدَّى دوراً عظيماً بعد البعثة النبوية الشريفة

١. التبيان في تفسير القرآن : الآيات .

٢. الإصابة : رقم ٣٤٢ أوس بن الصامت ، تفسير الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ؛ روح المعاني، للألوسي ؛ وغيرها من مصادر التفسير والتراجم .

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

وبالذات بعد الهجرة النبوية المباركة إليها، فدوّن لهما التنزيل العزيز والأقوال النبوية والتاريخ مناقب كريمة ومواقف مشرفة كُتِب لها الخلود، بعد أن منَّ الله تعالى عليهما برسول الله ﷺ ورسالته الخالدة وقرآنه الكريم؛ فوحد بينهما بعد تفرّق وشتات، وبعد قتال وحروب ضروس دامت سنين طويلة جداً، وإذا بهم؛ وبفضل من الله تعالى إخوة، راحت آيات قرآنية ترعى هذه الأخوة بينهم، وتدعوهم إلى التمسك بها، وتحرسهم وتحذرهم من تلك الرواسب، التي بقيت آثارها في النفوس، فإذا ما تذكروها، أو نزغ الشيطان بينهم، أو يثيرها أعداؤهم وأعداء الإسلام، تضطرب أوضاعهم، وتستدعيهم لحمل السلاح بينهم، فكانوا ممن خاطبهم هذا المقطع القرآني الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^١

فعن ابن عباس: كان بين الأوس والخزرج شرٌّ في الجاهلية، فذكروا ما بينهم، فثار بعضهم إلى بعض بالسيوف، فأتي رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فذهب إليهم، نزلت ... وعنه أيضاً: كان الأوس والخزرج يتحدّثون، فغضبوا حتى كاد أو يكون بينهم حرب، فأخذوا السلاح ومشى بعضهم إلى بعض، فنزلت ...

نزلت في الأوس والخزرج لما أغرى قوم من اليهود بينهم بذكر حروبهم في الجاهلية؛ ليفتنوهم عن دينهم عن زيد بن أسلم والسدي ... أو عن مقاتل: افتخر

١. سورة آل عمران : ١٠٠ - ١٠٣ .

رجلان من الأوس والخزرج ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسي: منا خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين ومنا حنظلة غسيل الملائكة ومنا عاصم بن ثابت بن أفلح حمي الدين ومنا سعد بن معاذ الذي اهتزَّ عرش الرحمن له ورضي الله بحكمه في بني قريظة، وقال الخزرجي: منا أربعة احكموا القرآن أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم، فجرى الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا وناديا، فجاء الأوس إلى الأوسي، والخزرج إلى الخزرجي ومعهم السلاح، فبلغ ذلك النبي ﷺ فركب حماراً وأتاهم فأنزل الله هذه الآيات، فقرأها عليهم فاصطلحوا!

الشيخ الطبرسي: ثم حذرَّ المؤمنين عن قبول قولهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، أَيَّ صَدَقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَهُوَ خُطَابٌ لِلأَوْسِ وَالخَزْرَجِ، وَيَدْخُلُ غَيْرَهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي عُمُومِ اللَّفْظِ﴾ ﴿إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ معناه إن تطيعوا هؤلاء اليهود في قبول قولهم، وإحياء الضغائن التي كانت بينكم في الجاهلية ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، أي يرجعوكم كفاراً بعد إيمانكم ... ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ...﴾، أي تمسكوا به وقيل: امتنعوا به من غيره ... ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، قيل: أراد ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب التي تطاولت مئة وعشرين سنة إلى أن أَلَّفَ اللهُ بين قلوبهم بالإسلام، فزالَت تلك الأحقاد عن ابن عباس، وقيل هو ما كان بين مشركي العرب من الطوائف ..

والمعنى احفظوا نعمة الله ومَنَّتَه عليكم بالإسلام وبالائتلاف، ورفع ما كان بينكم من التنازع والاختلاف، فهذا هو النفع الحاصل لكم في العاجل مع ما أعدَّ لكم من الثواب الجزيل في الآخرة إذ كنتم أعداء فألَّفَ بين قلوبكم بجمعكم على الإسلام، ورفع البغضاء والشحناء عن قلوبكم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ﴾، أي بنعمة الله ﴿إِخْوَانًا﴾، متواصلين وأحباباً متحابين بعد أن كنتم متحاربين متعادين، وصرتم بحيث يقصد كل واحد منكم

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

مُرَاد الآخِرِينَ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْأَخِّ مِنَ تَوَخُّيْتِ الشَّيْءِ إِذَا قَصَدْتَهُ وَطَلَبْتَهُ...^١ وَقَدْ ذَكَرُوا فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ كَالآيَةِ ١٠٠ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾
﴿وَ الْأَنْصَارِ﴾ :

الزخمشري: أهل بيعة العقبة الأولى، وكانوا سبعة نفر، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن.. إضافةً إلى كونهم من الذين نزل فيهم قوله تعالى في الآيتين ٧٤، ٧٢ من سورة الأنفال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾. فهم .. الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا.

فنالوا بهما إضافةً إلى إيمانهم وجهادهم وعطائهم غير المحدود وسامَ ذاك الإيواء، ووسامَ تلك النصرة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، فسموا بالأنصار ..

كما أن من كرمهم وحسن ضيافتهم، بل وعظيم حبهم لرسول الله ﷺ وتفاعلهم معه ومع المؤمنين به، نراهم ﴿... يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٢ حتى صاغت منهم هذه الصفات أناساً أخلاء وخواصاً لرسول الله ﷺ

١. أسباب النزول، للواحدي؛ مجمع البيان، للطبرسي بتلخيص: الآيات .

٢. سورة الحشر: ٩ .

ولدعوته ولمن آمن به وهاجر، فكانوا بحق شِعَاراً لهم في استعارة جميلة صاغها رسول الرحمة ﷺ بحقهم؛ لعظيم قربهم من رسول الله ﷺ وأنهم أَلْصَقُ به وأقربُ إليه من غيرهم: الأَنْصَارُ شِعَارُ والناس دِثَارُ!

جاء هذا فيما روي عنه ﷺ أنه قال: «.. لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأَنْصَارِ، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكتُ وادي الأَنْصَارِ وشِعْبَهَا، الأَنْصَارُ شِعَارُ والناس دِثَارُ، إنكم ستلقون بعدي أثرَةً فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». فالشعار: هو الثوب الذي يلي الجلد من الجسد، فيما الدثار: هو الثوب الذي يكون فوق ذلك الثوب. ويكفي ذلك وغيره مما ورد بحقهم فخراً لهم في الدنيا وذخراً لهم في الآخرة!

فُعْبَادَةُ بن الصامت، وبدليل أن عمره حين وفاته كان اثنتين وسبعين سنة، فإنَّ ولادته قبل البعثة النبويَّة الشريفة، ولعلَّها إما أن تكون قبلها بخمس وعشرين سنة، إن كانت وفاته سنة ٣٤ هجرية، أو ١٤ سنة إن كانت وفاته سنة خمس وأربعين هجرية على الاختلاف.. ولد عبادة بن الصامت في يثرب، ونشأ فيها «رجلاً طَوَّالاً، جَسِيماً جَمِيلاً»، ذا منزلة رفيعة في مجتمع المدينة، ومكانة بين أقرانه ومُحِبِّيه... له ولدان من زوجتين:

الوليد؛ وأمُّه: جميلة بنت أبي صعصعة عمرو بن زيد بن عوف بن مبدول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار. وبابنه هذا كان عبادة يكنى، كانت ولادته في آخر عهد النبي ﷺ ووفاته في خلافة عبد الملك بن مروان بالشَّام. وله أولاد عشرة من عدة نساء، وكان ثقة كثير الحديث، وابنه عبادة كان محدثاً أيضاً. يقول ابن حزم: كان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة عندنا بباب العطارين بقرطبة، يعرفون ببني هارون.

ومحمد؛ وأمُّه: أمُّ حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار. يقول ابن حزم: ومن ولده: أبو منيع الوليد بن داود بن محمد بن عبادة بن الصامت، وأخوه النعمان بن داود، محدث، روى عنه أبو نعيم.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

وكان له ولدان آخران وهما عبد الله وداود، ورد ذكرهما في الإصابة، دون أن يذكر شيئاً عنهما، إلا أنهما ممن روي عنه... وقد أسلمت كل من زوجته أم الوليد جميلة، وأم محمد أم حرام، وبايعتا رسول الله ﷺ.

وقد حظيت هذه المرأة بمنزلة عند رسول الله ﷺ يظهر هذا مما نُقل: «أنه كان ﷺ يُكرمها ويزورها في بيتها، ويقبل عندها، وأخبرها أنها شهيدة». كانت قد رافقت زوجها عبادة وهو في طريقه للجهاد في سبيل الله، فلما جاز البحر، ركبت دابةً، فصرعتها فقتلتها، وكانت تلك الغزوة غزوة قبرس، فدفنت فيها، وذلك سنة سبع وعشرين. وفي خبر أنها استشهدت فور نزولها على البر، فدفنت في جزيرة قبرص، ولا يزال قبرها يُعرف بقبر المرأة الصالحة!

إسلامه : لم يُوقف ﷺ حركته التبليغية لرسالة السماء، بسبب ما كان يلقاه من أهل مكة من تكذيب ومنع وتضييق عليه، وكان من حكمته ﷺ أن يخرج إلى القبائل فيلتقي بها، حتى وإن استدعى ذلك أن يكون في ظلام الليل، بعيداً عن أعين المشركين، التي إن أحسّت، فستحول بينه وبينهم، وتُربك عليه وظيفته، وتصده عن تحقيق مراده... فراح رسول الله ﷺ يستفيد من أي موسم يجتمع فيه الناس، عرب مكة والقبائل من حولها؛ يلتقي بهم، يُخبرهم بنبوته، يبلغهم رسالة السماء، يدعوهم للدين الحنيف، يقرأ عليهم آيات من التنزيل العزيز، بل وكان ينزل عليهم في منازلهم وطرقهم أفراداً كانوا أو جماعات؛ يعرض نفسه عليهم، يدعوهم إلى دعوته المباركة، وإلى ما جاء من الهدى والرحمة.. وكان مما يقوله لهم: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن

١. طبقات ابن سعد ٥ : ٥٩ رقم ٦٦١؛ جمهرة أنساب العرب، لابن حزم : ٣٥٤، بنو عنز، وهو قوئل، بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج بن حارثة .

يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب». فيذكر لهم الإسلام ويتلو عليهم القرآن.. حتى أنه ﷺ خرج ذات يوم من مكة، فمرَّ على نفر من أهل يثرب نزول بمنى ثمانية نفر؛ منهم من بني النجار... ومن بني سالم: عبادة بن الصامت... فعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلموا؛ وكان هذا في السنة العاشرة من البعثة، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات. ويُقال: خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقي فيه الستة نفر من الأنصار، فوقف عليهم فقال: أحلفاء اليهود؟ قالوا: نعم، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأسلموا. عن عبادة بن الصامت أنه قال: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بيد أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأمرکم إلى الله عزَّوجلَّ إن شاء عذب، وإن شاء غفر. وأنه حدَّث قائلاً: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلکم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً، فأخذتم مجده في الدنيا فهو كفارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة، فأمرکم إلى الله عزَّوجلَّ؛ إن شاء عذب، وإن شاء غفر.

وفي البخاري دعاهم رسول الله ﷺ فعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه قال: فبايعته، وفي نسخة فبايعناه على ذلك.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

ويبدو أن هذا وغيره وقع قبل العقبة الأولى، وأن هذه المواقف منه ﷺ تكررت هنا وهناك، في موسم أو في غيره، مع نفر أو مع أكثر... ومع هذا نقرأ ما جاءنا به ابن إسحاق عن عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، قال: ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً مستضعفين، ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب: يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم عن الله ما بعثه به...

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه، وإعزاز نبيه ﷺ، وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة، لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: «من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن»؛ قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شئ قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه، نتبعه فقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة

والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا...

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ... حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقيه بالعقبة. قال: وهي العقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب،... منهم: ... ومن بنى عوف بن الخزرج، ثم من بنى غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وهم القواقل: عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم، و...

قال ابن هشام: وإنما قيل لهم: القواقل؛ لأنهم كانوا إذا استجار بهم الرجل، دفعوا له سهماً، وقالوا له: قوقل به يثرب حيث شئت قال ابن هشام: القوقلة: ضرب من المشي.

وعن شروط البيعة في العقبة الأخيرة قال ابن إسحاق: وكانت بيعة الحرب، حين أذن الله لرسوله ﷺ في القتال شروطاً سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى، كانت الأولى على بيعة النساء، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله ﷺ في الحرب، فلما أذن الله له فيها، وبايعهم رسول الله ﷺ في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه، واشترط على القوم لربّه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة!

قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، أخو بنى سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدررون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله - إن فعلتم - خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال: الجنة! قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه! وعن العباس بن عباد بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف، يقول ابن إسحاق: وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فأقام معه بها، فكان يقال له: مهاجري أنصاري، وقتل يوم أحد شهيداً.

قال ابن إسحاق: فحدثني عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت عن أبيه الوليد، عن جده عباد بن الصامت، وكان أحد النقباء، قال: بايعنا رسول الله ﷺ ببيعة الحرب، وكان عباد من الإثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولى على بيعة النساء على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

أسماء من شهد العقبة قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من شهد العقبة، وبايع رسول الله ﷺ بها من الأوس والخزرج، وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين شهدها من الأوس.. وشهدها من الخزرج... من شهدها من بني عوف بن الخزرج، ثم من بني سالم بن عوف بن عمرو بن عوف: عباد بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر ابن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف، نقيب، شهد بدرًا والمشاهد كلها.

وعن العباس بن عباد بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف، يقول ابن إسحاق: وكان ممن خرج إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فأقام معه بها، فكان يقال له: مهاجري أنصاري، وقتل يوم أحد شهيداً.

وفي تاريخ دمشق: عن قتادة، قال: كان عباد بن الصامت بدرياً عقيباً أحد

تقباء الأنصار، وكان بايع رسول الله ﷺ أن لا يخاف في الله لومة لائم!

وتتحدث المصادر عن لقاء ثالث بينهم وبين رسول الله ﷺ حين واعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أواسط أيام التشريق، وفعلاً تمّ اللقاء، وكان عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، وبعد أن تلا رسول الله ﷺ القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، تمّت بيعتهم له، وطلب منهم اختيار اثني عشر نقيباً؛ ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً؛ تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس، وكان عبادة بن الصامت واحداً من هؤلاء النقباء...

فقدّر عبادة بن الصامت أن يكون ممن شهدوا العقبة الأولى والعقبة الثانية، وأن يكون أحد النقباء الاثني عشر، وفي قول: كان عبادة نقيباً وشهد العقبة الأولى والثانية والثالثة... ولما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام بين أهلها، وراحوا يدعون إليه جهاراً نهاراً.

وبعد أن تمّت هجرة رسول الله ﷺ إلى يثرب، كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ لبناء قاعدة قويّة مترابطة في هذه البلدة الطيبة، فأخى رسول الله ﷺ بين عبادة بن الصامت وبين أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبدالمطلب، فأصبحا أخوين في الله تعالى، وشهد بدرًا والمشاهد كلّها. فكان عقبيّاً نقيباً بدريّاً أنصاريّاً! بل، ومن أعيان البدرين! فلقد شارك في معركة بدر الكبرى، ولأنه اجتهد فيها وبالغ في القتال، فقد عدّ من أعيان البدرين، وكان له موقف صريح من مسألة الغنائم، وقد اختلف

١. السيرة النبويّة، لابن هشام ٢: ٤٢٨؛ تاريخ الطبري ١: ٥٥٩ - ٥٦٥؛ الاستيعاب، لابن عبد البر، عبادة بن الصامت؛ والبخاري؛ وتاريخ دمشق، لابن عساكر، حرف العين؛ ذكر من اسمه عبادة: عبادة بن الصامت، رقم الحديث: ٢٦٣٧١.

البدريون عليها بعد انتهاء المعركة.

قال ابن إسحاق: فلما انقضى أمر بدر، أنزل الله عزَّ وجلَّ فيه من القرآن الأنفال بأسرها، فكان مما نزل منها في اختلافهم في النَّفل حين اختلفوا فيه:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

وحين سئل عبادة بن الصامت عن الأنفال، قال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النَّفل يوم بدر، فانتزع الله من أيدينا، حين ساءت فيه أخلاقنا، فردّه على رسول الله ﷺ فقسّمه بيننا. عن بواء يقول: على السواء. وكان في ذلك تقوى الله وطاعته، وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين! فبعد أن أمر رسول الله ﷺ بما في العسكر، مما جمع الناس، فجمع، فاختلف المسلمون فيه: فقال من جمعه: هو لنا. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه: والله لولا نحن ما أصبتموه، لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم. وقال الذين كانوا يجرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو: والله ما أنتم بأحقّ به منا، والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافه، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، وكلنا خفنا على رسول الله ﷺ كره العدو، فقمنا دونه، فما أنتم بأحقّ به منا!

غزوة بني قينقاع :

على أثر الهزيمة الكبرى، التي حلّت بالمشركين في معركة بدر، وكانت نتائجها

١. تاريخ الطبري ٢ : ٣٨ ، سنة ٢ ؛ السيرة النبويّة، لابن هشام ٢ : ٦٤١-٦٤٢ ، ٦٦٦-٦٦٧ نزول سورة الأنفال. ومصادر التفسير: الآية.

على مسمع ومرأى من يهود بني قينقاع، الذين لم يألوا جهداً في اقتناص أخبارها، وبدل أن يتعظوا بالنصر الكبير للمسلمين، وأن يلتزموا بما بينهم وبين رسول الله ﷺ بنذوا العهد وأظهروا البغي في المدينة قبل معركة بدر وبعدها، وكان بنو قينقاع بطناً من ثلاثة أبطن من اليهود، وهم بنو النضير، وقريظة، وقينقاع، وكان بينهم جميعاً وبين رسول الله ﷺ عهدٌ، ويعدُّ بنو قينقاع أشجع اليهود في المدينة، وكانت مهنتهم الصياغة. ولهم مع عبد الله بن أبي بن سلول، وعُباد بن الصامت حلفٌ قديم..

ويقال: إنَّ يهود بني قينقاع، هم أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وسعوا للحرب بين وقعتي بدر وأحد ببغيهم وتجاوزهم، ومن ذلك اعتداؤهم على امرأة من العرب كانت زوجة لبعض الأنصار، قدمت بجلب، وهو ما يجلب لبيع من إبل وغنم وغيرهما، فباعته بسوق بني قينقاع، فجلست إلى صائغ منهم، فجعل جماعة منهم يراودونها عن كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فخاطه بشوكة إلى ظهرها وهي لا تشعر، فلما قامت، انكشفت سوأتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه... فاضطربت الحالة في المدينة، حتى حذرهم المسلمون، وقالوا لأوليائهم من اليهود: آمنوا قبل أن يصيبكم الله بيوم مثل يوم بدر! فقال مالك بن صيف: أغركم أن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال أم لو أمرونا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يدان بقتالنا؟! كما أن رسول الله ﷺ قد حذرهم بقوله: «يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة، وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

قالوا: يا محمد، إنك ترى أنا قومك! لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس! عن ابن عباس، قال: ما نزل هؤلاء الآيات إلا فيهم: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ اللَّتَمْتَا (أي أصحاب بدر من أصحاب رسول الله ﷺ، وقريش) فَنَّةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ^١.

وهنا موقفان :

كان لعبادة بن الصامت حلفٌ قديمٌ معهم، كما كان لعبد الله بن أبي بن سلول حلفٌ معهم، فظهر هنا موقفان لكلٍّ من الرجلين تجاه هذا الحلف: موقف إيمانٍ تجلَّى لعبادة بن الصامت.

وموقف نفاقٍ لابن سلول رأس النفاق في المدينة؛ والذي لم يُعلن إسلامه إلا بعد وقعة بدر الكبرى، بمعنى أن إسلامه عمره أيام قلائل، فالأول تبرأً من حلفه معهم، حين مشى إلى رسول الله ﷺ فخلعهم وتبرأً إلى الله عزَّ وجلَّ وإلى رسوله الله من حلفهم، وقال: يا رسول الله؛ أتولَّى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. وفي خبر آخر أنه جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن لي أولياء من اليهود كثيراً عددهم، قوية أنفسهم، شديدة شوكتهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم، ولا مولى لي إلا الله ورسوله! فنزلت:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

فيما الثاني تمسك بحلفه معهم، وتشبث بأمرهم، وقام دونهم، ودافع عنهم.. فكان موقفه هذا يحكي علاقته الوثيقة بهم، وأنها الأقوى والأشدُّ من علاقته بالدين وبرسوله

١. سورة آل عمران: ١٢-١٣؛ انظر طبقات ابن سعد؛ والسيرة الحلبية؛ السيرة لابن هشام، غزوة بني قينقاع؛ وجمع البيان، للشيخ الطبرسي وغيرهما: الآيات.

الكرِيم ﷺ. ويقال نزلت في كلٍّ من عبادة بن الصامت وبن سلول آيات من سورة المائدة ٥١ - ٥٣.

كما عن ابن إسحاق أنه قال: وحدثني أبي إسحاق بن يسار، عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال: لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ، تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي بن سلول، وقام دونهم. قال: ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ، وكان أحد بني عوف، لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبد الله بن أبي، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله عزَّ وجلَّ، وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. قال: ففيه وفي عبدالله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (أي لعبد الله بن أبي) وقوله: إني أخشى الدوائر!) يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءُ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.

وفي قول: جاء عبادة بن الصامت فقال: يا رسول الله إن لي موالي من اليهود كثيرٌ عددهم حاضر نصرهم، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوي إلى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا الحباب ما بخلت به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه». فقال: قد قبلت. فأنزل الله تعالى فيهما:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾. يعني عبد الله بن أبي ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ في

ولا يتهم ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ...﴾ الآية^١.

موقف آخر :

لم يسمعوا لقول رسول الله ﷺ وتحذيره، ولم يسمعوا لنصيحة المسلمين لهم، فأصروا على عنادهم، وواصلوا نبذهم للعهد، وأظهروا بغيهم، وفي قول نزلت فيهم هذه الآية ٥٨ الأنفال: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

الطبري في تفسيره: وإمّا تخافنّ يا محمد من عدوّ لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده وينقض عقده ويغدر بك، وذلك هو الخيانة والغدر. ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ يقول: فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم من ظهور آثار الغدر والخيانة منهم حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها، وتبرأ من الغدر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾، الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد بينه وبينه أن يغدر به، فيحاربه قبل إعلامه إياه أنه له حرب وأنه قد فاسخه العقد.

وهذا ما حصل فعلاً فقد قال رسول الله ﷺ: «إني أخاف من بني قينقاع..!» وما كان من رسول الله ﷺ إلا أن يسير إليهم، ويحاصرهم في دارهم للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجره، أي في السنة الثانية للهجرة، وقيل سنة ثلاث من الهجرة، وبعد خمسة عشر يوماً من الحصار، وبعد أن قذف الله في قلوبهم

١. انظر السيرة النبوية، لابن هشام؛ وأسباب النزول، للواحدي؛ ومصادر التفسير: الآية ٥١ - ٥٣

الرعب، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ بإجلائهم عن المدينة، فكان الذي ولى إخراجهم منها عبادة بن الصامت، فمضى بهم حتى بلغ بهم ذباب، وهو يقول: الشرف الأبعد، الأقصى فالأقصى! ثم لحقوا بأذرعَات.^١

وهنا ظهر الموقف الآخر لعبادة بن الصامت، فهو إضافةً إلى كونه تبرأ منهم ومن حلفهم، تولى إجلاءهم عن المدينة، التزاماً بدينه وطاعةً لرسول الله ﷺ ولما حكم به.

وقد شارك الرجل في المشاهد كلها، التي شهدها رسول الله ﷺ بعد بدر: معركة أحد ووقعة الخندق، وهكذا في فتح مكة وحُنين.. ولم يتخلف عن واحدة منها. وقد عرف بشدة مراقبته لنفسه، وبورعه وزهده، نجد هذا في مواقف له، منها: لما استعمله النبي ﷺ على الصدقة، قال له: «أتق الله يا أبا الوليد، لا تأتي يوم القيامة ببيعير تحمله له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة لها ثواج»!

فقال عبادة: يا رسول الله ذلك كذلك، قال: أي والذي نفسي بيده إلا من رحم الله! قال: والذي بعثك بالحق لا أعمل على اثنين!

ولعله ﷺ وهو يخاطبه بكنيته، تقديراً له، واستمالة لقلبه، وحباً لإصاغه، وحرصاً عليه من الخيانة وعقابها، وتحذيراً له عن الغلول في الصدقات، فيكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^٢

وفعلًا برَّ هذا الصحابي بقسمه، ولم تتق نفسه لأي منصب، إلا لتعليم الناس القرآن الكريم وأحكام الدين، وقد بدأ بهذه المهمة بوجود رسول الله ﷺ لا يشغله عن

١. انظر تاريخ الطبري ٢ : ٤٩ سنة ٢ ؛ تفسير جامع البيان، للطبري ؛ وتبعه مجمع البيان، للطبرسي : الآية .

٢. سورة آل عمران: ١٦١ .

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

رغبته هذه إلا سوح الجهاد، فقد عرف أنه ممن جمع القرآن في زمن رسول الله ﷺ حتى أنه عدّ واحداً من خمسة من الأنصار؛ جمعوا القرآن الكريم، في زمن النبي ﷺ وهم: معاذ بن جبل، عبادة بن الصامت، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الأنصاري، وأبو الدرداء. وكان يلتقي أهل الصفة؛ ليعلمهم القرآن الكريم. ومن تقواه وورعه أنه مرّ بقرية دمر، فأمر غلامه أن يقطع له سواكاً من صفصاف على نهر بردي، فمضى ليفعل، ثم قال له: ارجع، فإنه إن لم يكن بثمر، فإنه يببس، فيعود حطاباً! السقيفة :

التي سجّلت مرحلة خطيرة في تاريخ هذه الأمة، وحراكاً اجتماعياً كبيراً وسريعاً، يُعدُّ الأول، الذي أسس لدولة الخلافة، وبالتالي لبناء التاريخ السياسي والاجتماعي للأمة، ولما وقع فيه من أحداث ووقائع، واضطرابات ونزاعات، كلفتها لا تعدُّ ولا تُحصى، (ولما يكون بعدها شرُّ منها، وإلى الله المشتكى!! كما وصفها حذيفة) وما زالت آثارها إلى يومنا هذا وللآتي بعده تُلقى بظلالها على المسلمين، ولا أرى وصفاً دقيقاً وحقيقياً لولاية السوء ولمن تولّى ذلك إلا هذين الآيتين: ﴿... مَنْ يُعْجِبْكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفٰسٰدَ﴾^٣

فما إن لبّى رسول الله ﷺ نداء ربّه تعالى حتى بادر الأنصار لسقيفتهم، لاختيار

١. وجمعوا هنا بمعنى الحفظ عن ظهر القلب لا جمع تدوين في المصاحف .

٢. المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني : ٦٧٧٥ ؛ معرفة السنن والآثار، للبيهقي : ٢٠٨٨ ؛ المغنى ٥ : ٢٤ ؛

أعلام النبلاء ٢ : ١٠٠ .

٣. سورة البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٥ .

من يخلف رسول الله ﷺ في الأمر، وما إن بدأ النقاش بين أوسهم وخزرجهم، وكادوا يختارون زعيماً منهم لذلك، إذ دخل عليهم أبوبكر وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح... فقلبوا الأوراق، واحتدم الجدل بين المجتمعين، وبعد مخاض من نزاع، وإن لم يدم طويلاً، لكنه كان سيئاً؛ اختير أبوبكر، وأخذت البيعة له في داخل السقيفة وفي المسجد، وفي هذا الحدث لم يُذكر لعُبادَة بن الصامت أيُّ شيء، إلا أنه يمكن أن يُعرف موقفه مما حصل؛ أنه كان واحداً من نفرٍ أو جمعٍ صالحين:

(المقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأبوذر، وحذيفة، وأبو الهيثم بن التيهان، ثم أبي بن كعب)، (يتناجون!!) فيما بينهم، قلتُ: لعلهم توقفوا من هذه البيعة وصحتها، أو كانوا غير راضين عنها، أو رافضين لها، أو أن من ضمّتهم السقيفة تجاوزوا من هو جدير بخلافة رسول الله ﷺ، أو لهم رأي آخر.. لا أدري، ولكنهم حسب الخبر: «يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين»، «كأنكم أردتم النظر في هذا العقد»!

كان هذا التجمع فيما سمعه أبو سعيد الخدري عن البراء بن عازب؛ حيث قال أبو بكر أحمد بن عبد العزيز، وله أقوال عديدة، كان منها: حدثني المغيرة بن محمد المهلبى من حفظه، وعمر بن شبة من كتابه بإسنادٍ رفعه إلى أبي سعيد الخدري، قال: سمعتُ البراء بن عازب يقول: لم أزل لبني هاشم محبباً، فلما قبض رسول الله ﷺ تخوفتُ أن تتمالأ قريش على إخراج هذا الأمر عن بني هاشم، فأخذني ما يأخذ الواله العجول.. فمكثتُ أكابد ما في نفسي، فلما كان بليلاً، خرجتُ إلى المسجد، فلما صرتُ فيه تذكرتُ أني كنتُ أسمع همهمة رسول الله ﷺ بالقرآن، فامتنعتُ من مكاني، فخرجتُ إلى الفضاء فضاء بني بياضة، وأجد نفرأ يتناجون، فلما دنوتُ منهم سكتوا فانصرفتُ عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم، فأتيتهم، فأجد المقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، وسلمان الفارسي، وأبأذر، وحذيفة، وأبا الهيثم بن التيهان، وإذا حذيفة يقول

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

لهم: والله ليكونن ما أخبرتكم به، والله ما كذبتُ ولا كُذبتُ! وإذا القوم يريدون أن يعيدوا الأمر شورى بين المهاجرين. ثم قال: اتوا أبي بن كعب، فقد علم كما علمت. قال: فانطلقنا إلى أبي، فضربنا عليه بابه، حتى صار خلف الباب، فقال: من أنتم؟ فكلمه المقداد، فقال: ما حاجتكم؟

فقال له: إفتح عليك بابك، فإنَّ الأمر أعظم من أن يجري من وراء حجاب، قال: ما أنا بفاتح بابي، وقد عرفت ما جئتم له، كأنكم أردتم النظر في هذا العقد.

فقلنا: نعم، فقال: أفيكم حذيفة؟ فقلنا: نعم، قال، فالقول ما قال، وبالله ما أفتح عني بابي حتى تجري على ما هي جارية، ولما يكون بعدها شرُّ منها، وإلى الله المشتكى! ومن ضمن ما يدلُّ عليه هذا الخبر، وباختصار، أن هؤلاء الكبار من الصحابة، يتناجون فيما بينهم خفيةً؛ ويتهامسون سرًّا في موضوع خطير بل الأخطر في الساحة، يتعلق بالدين والأمة، يظهر من ذلك أنهم لم يمتلكوا القدرة على قول الحق الذي يعتقدونه جهاراً، ولا على بيان آرائهم صراحةً لا في السقيفة ولا في مسجد رسول الله ﷺ ولا في أيِّ مكان، وبدل أن يُسمعوا الناس بما يريدون، صاروا يُناقشون ما وقع سرًّا وهمساً، ومعنى هذا أن في الساحة ما يُخيفهم أذًى واعتداءً، أو أنهم يخشون على الساحة من أن تعود إليها الفرقة والتشتت وما يترتب على ذلك من تنازع واقتتال..

تقابلهم خلافة لرسول الله ﷺ تنازعوا عليها في السقيفة، عمرها أيام قليلة، لا يتجاوز أصابع اليدين، ينبغي لها بل يجب عليها أن تكون قد ورثت كلمة العدل والإنصاف حتى لمن يختلف معها رأياً وموقفاً، وأن تسمع للحق وتحيب بكل رحابة صدر وخلق رفيع، خاصةً وأن أولئك النفر الذين يتناجون وهم في (فضاء بني بياضة)، كانوا

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١: ٢١٩ - ٢٢٠، ٢: ٥١ - ٥٢.

من كبار الصحابة مهاجرين وأنصاراً، وكلا الفريقين المتخفيين والحاكم لم يفارقوا رسول الله ﷺ ولم يتعدوا عن مبادئه وقيمه إلا وقتاً يسيراً بعد وفاته ﷺ أمر يُثير العجب والاستغراب أن ثلاثة وعشرين عاماً، لم تُدعن نفوس هؤلاء وهم من عليّة القوم لقول الحقّ والدفاع عنه والعمل به، وهم قريبو عهد برسولٍ عاش بينهم وكانوا به ملتصقين، لا يفارقونه إلا في الخاص من أوقاته! يُعلّمهم، يُزكّيهم، يُبلّغهم رسالة السماء بكلّ تفاصيلها، القائمة على الحقّ والعدل، وعلى قول المعروف وإنكار المنكر، لا أدري؛ كيف لم يتأثروا بشخصيته ﷺ بكلّ ما تحمله من أخلاق عظيمة، فضلاً عن مبادئه، مبادئ السماء وقيمها!! ثمّ ما أسرع دخول الرعب إلى ساحةٍ للتوّ رحل عنها رسول الله ﷺ الذي رفع الخوف من بين المؤمنين، وألّف بين قلوبهم بعد تباعد أو تناحر وشقاق، وأخى بين مهاجريهم وأنصارهم... لقد ألقى الرعب في القلوب، أن يخشى بعض الصحابة بعضاً آخر، يتستر بعضهم من بعضٍ بظلام الليل (.. فلما كان ليليل، خرجتُ إلى المسجد... فخرجتُ إلى الفضاء فضاء بني بياضة، وأجد نفرًا يتناجون، فلما دنوت منهم سكتوا، فأنصرفتُ عنهم، فعرفوني وما أعرفهم، فدعوني إليهم، فأتيتم.. أيُّ حذر من الرقيب؟! ولعلّ هناك غير هؤلاء من المهاجرين والأنصار، ولكن لا تسمع لهم حسيماً ولا همساً؛ فأیُّ توجس وخوف من أعين سلطنة هي الآن في بدايتها، وعلى رأسها رفاق الدرب والصحبة والهجرة والنصرة، فيما هناك من رضوا بما وقع، ولم يروا فيه عيباً ولا شيئاً ولا بأساً، وفيهم من خطط له وأعدّ له عدّته...!

وكلمة أخيرة مع الأنصار، فأنتم - كما يبدو من الأخبار - المبادرون لعقد تجمع السقيفة، سعيّاً أن تكون الخلافة منكم، ثمّ تنازلتم ورضيتم أن يكون منكم أمير ومن المهاجرين أمير، وحتى هذه لم تحصلوا عليها، وكان الأجدر بكم وللتاريخ، وقبل أن تبايعوا، وما دام صار ملاك الخلافة أن تكون في المهاجرين فهم الأقرب لرسول الله ﷺ وهم عشيرته، وهم الشجرة، فلماذا لم تذكروا الثمرة «احتجوا بالشجرة وأضاعوا

الثمرة»^١.

تلك الثمرة المباركة؛ علي عليه السلام وأهل البيت عليهم السلام، فكان الأجدد بكم أن تذكروا علياً عليه السلام، فهو من المهاجرين، والأقرب إلى رسول الله ﷺ وفيه الأحاديث والمناقب والمواقف النبوية الأخرى، وأنتم على مسمع من ذلك ومرأى، وبالذات حديث الغدير وحديث المنزلة، فأين أنتم منه؟! لا أدري، فلعلكم لم تفهموا من ذلك كله أنه يدل على الخلافة، فإذا كان الأمر كذلك، فأى شيء وجدتموه في غيره، يجعله أهلاً للخلافة؟! أم اشتبهت عليكم الأمور، وتشابكت عليكم الأهواء، وتقلت عليكم الضغوط من هنا وهناك..

أحبكم كثيراً، ولكني كنت أتمنى أن يُذكر لكم في السقيفة موقف صريح فيه نصره لرسول الله ﷺ بنصرتكم لعليّ عليه السلام ولواقفه العظيمة، التي تمثلت في الساحة مناقب وعلماً وجهاداً وحرصاً على الإسلام، فهو - بلا ريب - يُفرح النبي ﷺ ولا يغيبه!! أو كان لكم ذلك الموقف وحذفه الرقيب ممن يتولى كتابة التاريخ!!

من أنشطته :

لم يمنع موقفه من الخلافة بعد رسول الله ﷺ كما لم يمنع سلمان الفارسي ولا أباذر ولا حذيفة بن اليمان ولا المقداد... من أن يشاركوا في العديد من الأنشطة، التي يعتقدون أنّ فيها خدمةً للرسالة الإسلامية؛ في تبليغها وتعليمها ونشرها، وفي الدفاع عنها، إلاّ ابن التيهان، فلم يُذكر له أيُّ مشاركة، أو عمل مع الخلفاء الثلاثة، حتى أنه رفض طلب أبي بكر أن يكون خارصاً، فعن محمد بن يحيى بن حبان أن أبا الهيثم بعثه

١. نهج البلاغة ١ : ١١٦ رقم ٦٧ .

رسول الله ﷺ خارصاً، ثم بعثه أبو بكر، فأبى، وقال: إني كنتُ إذا خرصت لرسول الله ﷺ فرجعتُ، دعا لي!

إلا أنه لم يرفض طلب الخليفة الثاني؛ حينما وجهه إلى فذك مع سهل بن أبي حثمة وزيد بن ثابت الأنصاريين، فقوموا نصف ترتبها بقيمة عدل، فدفعها إلى اليهود وأجلاهم إلى الشام.

لا أدري لماذا رفض طلب الأول ولبّي طلب الثاني؟! فلعلّه رأى المصلحة في إجلاء اليهود من فذك وإبعادهم إلى الشام!

ففي ميادين الجهاد، ترى عبادة بن الصامت حريصاً على عدم تركها، بل راح يُلبي نداءها، ويستبسل فيها، فهو ومعه أبو أمامة وغيره من الصحابة في معركة اليرموك، التي وقعت بين المسلمين، والروم في سنة ١٣ هجرية في وادٍ سميت به، وهو اليرموك، ويُقال إن اليرموك: نهر ينبع من جبال حوران. يجري قرب الحدود بين سوريا وفلسطين...

وهو في فتح مصر سنة ٢٠ هجرية، بلغ عدد الجنود الذين أرسلهم عمر بن الخطاب اثني عشر ألف مقاتل من بينهم عدد من كبار الصحابة، أمثال الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد وغيرهم، وفي الإصابة في ذكر عبادة: شهد فتح مصر وكان (أمير ربيع المدد!). وكان عبادة واحداً من أربعة قادة بعثهم الخليفة الثاني مدداً لعمر بن العاص، قائلاً له: «إني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجلٌ بألف رجل».

١. سير أعلام النبلاء، للذهبي: عبادة بن الصامت؛ وفتوح البلدان، للبلاذري: ٢٥ فذك.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

وهو في عمورية سنة ٢٣ هجرية، يقول الطبري: وفيها غزا معاوية عمورية؛
ومعه من أصحاب رسول الله ﷺ عبادة بن الصامت، وأبو أيوب خالد بن زيد، وأبو ذر،
وشداد بن أوس.

وهو في قبرس سنة ٢٨ هجرية، فتحت قبرس، وفي قول كانت قبرس سنة سبع
وعشرين، غزاها - فيما ذكر - جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، فيهم أبو ذر، وعبادة
بن الصامت؛ ومعه زوجته أم حرام، والمقداد، وأبو الدرداء، وشداد بن الأوس.^١

وتراه ينظر إلى بلاد الشام، فيلي أمر الخليفة الثاني، حينما طلب منه المسلمون
في الشام وقد تكاثروا؛ أن يرسل لهم مزيداً من المبلغين، من يعلمهم القرآن، من يفقههم
في الدين، فأرسل لهم ثلاثة ممن لهم تلك القدرات العلمية، التي تمكنهم من أداء دورهم،
وهم: عبادة بن الصامت وأبو الدرداء ومعاذ بن جبل، فأقام عبادة بحمص، وأقام أبو
الدرداء بدمشق، ومضى معاذ إلى فلسطين. كان هذا في إمارة يزيد بن أبي سفيان على
الشام؛ حتى إذا مات يزيد وولي بعده معاوية، سار عبادة في جنده.

ولم يكتف عبادة بتعليم الناس القرآن قراءةً وتفسيراً ولفقه، بل راح يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر، وعدّ هذا جزءاً من تعليمهم أحكام دينهم، وراح يوقظ في
نفوسهم هذه الفريضة التي بذل الحكّام الظالمون والفاسدون جهودهم لإماتها، فبوجودها
قائمة بين الناس، لا يستطيعون التسلط عليهم ونهب ثروات بلادهم؛ والاستئثار وإساءة
الإثارة.. لهذا انبرى هذا الصحابي الجليل، وهو الذي بايع رسول الله ﷺ على أن
لا يخاف في الله لومة لائم، وبايعه وعاهده على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كما

١. تاريخ الطبري، والإصابة في معرفة الصحابة.

جاء في جوابه حين أتاه يوماً أبو هريرة، فقال:
يا عبادة، مالك ولعاوية؟! ذرّه وما حمّل!

فقال: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألاً تأخذنا في الله لومة لائم! فسكت أبو هريرة.

لهذا واصل عبادة موافقه من معاوية بن أبي سفيان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر؛ لا يُثنيه خوف ولا توقف حركته أقوال المترددين الخائفين أو المنتفعين؛ حتى أنه لما رأى هناك تعاملًا بالربا، قام في الشام خطيباً، فقال:

يا أيها الناس، إنكم قد أحدثتم بيوعاً، لا أدري ما هي! ألا إن الفضة بالفضة وزناً بوزن تبرها وعينها، والذهب بالذهب وزناً بوزن وعينه، ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يداً بيد والفضة أكثرها ولا يصلح نسيئة، ألا وأن الحنطة بالحنطة مدياً بمدى والشعير بالشعير مدياً بمدى، ألا ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير أكثرها يداً بيد ولا يصلح نسيئة، والتمر بالتمر مدياً بمدى، والملح بالملح مدياً بمدى، ومن زاد أو ازداد فقد أربى.

وفي خبر أن معاوية غزا غزاة كان فيها عبادة بن الصامت، فغنموا فيما غنموا آنيةً من فضة، فأمر معاوية رجلاً أن يبيعها في أعطيات الناس، فتسارع الناس إلى ذلك.. أو باع الإناء بمثلي ما فيه أو نحو ذلك.

فبلغ عبادة بن الصامت، فقام فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة.. إلاّ سواء بسواء وعيناً بعين، فمن زاد أو ازداد فقد أربى. فردّ الناس ما أخذوه، فبلغ ذلك معاوية فقام خطيباً فقال: ألا ما بال رجال يتحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث قد كنا نشهده ونصحه فلم نسمعها منه؟!

فقام عبادة بن الصامت، فأعاد القصة، ثم قال: لنحدثن بما سمعنا من

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

رسول الله ﷺ وإن كره معاوية أو قال: وإن رغم ما أبالي أن لا أصحبه في جنده ليلة سوداء، أو إني والله لا أبالي أن لا أكون بأرض يكون بها معاوية. ومن موافقه أن عبادة أنكر على معاوية شيئاً، أو كان معاوية خالفه في شيء أنكره عبادة في الصرف، فأغلظ له معاوية في القول. فقال له عبادة: لا أسألك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة، فقال له عمر: ما أقدمك؟! فأخبره. فقال: ارجع إلى مكانك، فقبح الله أرضاً لستَ فيها أنت ولا أمثالك!

وكتب إلى معاوية: لا إمرة لك على عبادة، أو لا أمر لك عليه، أو قال لعبادة: فلا إمرة له عليك^١.

فرجع عبادة إلى الشام؛ ليواصل جهاده ضد الفساد والانحراف عن الشريعة من حاكم كان أو من غيره، من راعٍ كان أم من رعية، وهو يعلم أن لا إمرة لمعاوية عليه، وكان مع معاوية فأذن يوماً، فقام خطيب يمدح معاوية ويثني عليه. فقام عبادة بتراب في يده، فحشاه في فم الخطيب، فغضب معاوية.

فقال له عبادة: إنك لم تكن معنا حين بايعنا رسول الله ﷺ بالعقبة على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ومكسلنا، وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم بالحق حيث كنا، لا نخاف في الله لومة لائم.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم المدّاحين فاحتوا في وجوههم التراب». وهكذا ظلّت موافقه دون تردد أو خشية من أحد، يُراقب معاوية بدقّة حتى وهو

١. انظر الاستيعاب، لابن عبد البر؛ أسد الغابة ٣ : ١٦٠؛ الإصابة: عبادة بن الصامت؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢، رقم ١ عبادة بن الصامت؛ صحيح مسلم، المساقاة ١٥٨٧؛ مسند أحمد ٥ : ٣١٩؛ النسائي ٢٠ : ٢٢٢.

يخطب، فقد ذكروا أن معاوية ذكر الفرار من الطاعون في خطبته.

فقال له عبادة: أمك هند أعلم منك، فأتمَّ خطبته ثم صلَّى، أرسل إلى عبادة، فنفذت رجال من الأنصار معه، فاحتبسهم ودخل عبادة، فقال معاوية: ألا تتقي الله وتستحي من إمامك؟ فقال عبادة: أليس قد علمتَ أني بايعتُ رسولَ الله ﷺ ليلة العقبة أني لا أخاف في الله لومة لائم؟ ثم خرج معاوية عند العصر فصلَّى، ثم أخذ بقائمة المنبر، فقال: أيها الناس! إني ذكرتُ لكم حديثاً على المنبر، فدخلتُ البيت، فإذا الحديث كما حدثني عبادة، فاقتبسوا منه فهو أفقه مني!

إنها بلا شك حقيقة ما يتمتع به هذا الصحابي الجليل من علم ومعرفة وقوَّة، اضطرت معاوية ودفعته لهذا الاعتراف، وإلاَّ فقوة شخصيته لا تستميلها كلمات مدح أو ثناء، ومعاوية يعرف هذا جيداً.

ولابن حجر العسقلاني كلمة في ذلك حيث قال: ولعبادة قصص متعددة مع معاوية، وإنكاره عليه أشياء، وفي بعضها رجوع معاوية له، وفي بعضها شكواه إلى عثمان منه، تدلُّ على قوته في دين الله، وقيامه في الأمر بالمعروف!

وبقي عبادة يُراقب من حوله أفراداً ومتاجر وأسواقاً وقوافل.. فمرَّت عليه قطارة (قافلة من الإبل) تحمل الخمر، فقال: ما هذه؟ أزيت؟ قيل: لا، بل خمرٌ يُباع لفلان. فأخذ شفرة من السوق فقام إليها، فلم يذر فيها راوية إلاَّ بقرها. وأبو هريرة إذ ذاك بالشام فأرسل فلان إلى أبي هريرة، فقال: أتمسك عنا أخاك عبادة، أما بالغدوات فيغدو إلى السوق؛ يفسد على أهل الذمة متاجرهم، وأما بالعشي فيقعد في المسجد ليس له عمل إلاَّ شتم أعراسنا وعيينا! قال: فأتاه أبو هريرة فقال: يا عبادة، مالك ولمعاوية! ذره وما حمل. وفي خبر أضاف أبو هريرة قائلاً، فإنَّ الله يقول: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾

فقال له عبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألا تأخذنا في الله لومة لائم، فسكت أبو هريرة! وقصص معاوية في الخمر، تناقلتها الأخبار، منها عن عبد الله بن بريدة، قال: دخلت أنا وأبي على معاوية، فأجلسنا على الفرش، ثم أتينا بالطعام، فأكلنا، ثم أتينا بالشراب، فشرب معاوية، ثم ناول أبي، ثم قال أي أبي: ما شربته منذ حرمه رسول الله صلى الله عليه وآله.

ورأى معاوية أن فرصة الخلاص من هذا الصحابي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد حلت بتولي عثمان بن عفان سدة الخلافة الثالثة، الذي ما إن استخلف حتى جمع لمعاوية إمارة الشام كله، وأرخص له زمام السلطة فيه، يفعل ما يشاء دون وازع من دين وخلق وضمير، يصول ويجول في الرعية ظلماً وبغيًا، وشراءً للذمم وتجهيلًا، وأراد بلاد الشام خالصةً له، دون رقيب هناك ولا حسيب..

فكتب كتبه إلى عثمان: أن عبادة بن الصامت قد أفسد عليّ الشام وأهله، فإما أن تكفه إليك، وإما أن أخلي بينه وبين الشام.

فكتب إليه: أن أرحل أو رحّل عبادة حتى ترجعه إلى داره بالمدينة. فدخل على عثمان، فلم يفجأه إلا وهو معه في الدار، فالتفت إليه فقال: يا عبادة، ما لنا ولك؟ فلم يجبه سرًّا بل جهارًا؛ أن قام بين ظهرائي الناس، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: سيلي أموركم بعدي رجالٌ يعرفونكم ما تنكرون، وينكرون عليكم ما تعرفون، فلا طاعة لمن عصى، ولا تضلوا برّبكم. وفي رواية: فوالذي نفس عبادة بيده إن فلاناً (يعني

١. سورة البقرة: ١٣٤، ١٤١.

معاوية) لمن أولئك، فما راجعه عثمان بحرف.

وهي نفس الطريقة، التي اتبعتها مع الصحابي الجليل أبي ذرّ الغفاري حين كتب إلى عثمان فيه «إِنَّكَ قَدْ أَفْسَدْتَ الشَّامَ عَلَى نَفْسِكَ بِأَبِي ذَرٍّ». حَقًّا لَقَدْ أَفْسَدَهَا - رضوان الله عليه - على الاثنين معاً على عثمان في المدينة وعلى معاوية في الشام؛ لأنه كان يندد بظاهرة الفساد، التي عمّت مفاصل الدولة وصارت ثقافةً للعباد بفضل خلفاء الجور وولاتهم، الذين لم يُبقوا للناس ديناً صالحاً، ولا ديناً إلاّ حرفته أهواؤهم، واستثمروه لمصالحهم..

قالوا عنه :

جاء في معجم رجال الحديث، أنه كان واحداً من الأنصار النقباء الاثني عشر كما في الخبر: اختار رسول الله ﷺ من أمته اثني عشر نقيباً، أشار إليهم جبرئيل، وأمره باختيارهم، كعدة نقباء موسى عليه السلام: تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فمن الخزرج :

أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وعبد الله بن عمرو بن حزام، والد جابر بن عبد الله، ورافع بن مالك، وسعد بن عباد، والمندر بن عمرو، وعبد الله بن رواحة، وسعد ابن الربيع، ومن القواقل: عباد ابن الصامت، ومعنى القواقل: الرجل من العرب كان إذا دخل يثرب يجيء إلى رجل من أشراف الخزرج فيقول: أجزني ما دمت بها من أن أظلم، فيقول: قو قل حيث شئت فأنت في جواربي، فلا يتعرض له أحد.

ومن الأوس :

أبواهيشم بن التيهان، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، وأنه كان واحداً من الذين مضوا على منهاج نبيهم، ولم يُغيروا ولم يُبدلوا مثل: سلمان الفارسي، وأبي ذرّ

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤١)

الغفاري، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وحذيفة اليماني، وأبي الهيثم بن التيهان، وسهل بن حنيف، وعبادة بن الصامت، وأبي أيوب الأنصاري، وخزيمة بن ثابت ذي الشهاداتين، وأبي سعيد الخدري.

وقال الكشي في ترجمة أبي أيوب الأنصاري، وقال الفضل بن شاذان أيضاً: إنَّ من السابقين الذين رجعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام أبو الهيثم بن التيهان، وأبو أيوب، وخزيمة ابن ثابت، وجابر بن عبد الله، وزيد بن أرقم، وأبو سعيد الخدري، وسهل بن حنيف، والبراء بن مالك، وعثمان بن حنيف، وعبادة بن الصامت، ثم ممن دونهم قيس بن سعد بن عبادة، وعدي بن حاتم وعمرو بن الحمق، وعمران بن الحصين، وبريدة الأسلمي، وبشر بن كثير.^١

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾

وقال عنه الذهبي: الإمام القدوة، أبو الوليد الأنصاري، أحد النقباء ليلة العقبة، ومن أعيان البدرين.^٢

من أحاديثه :

عدّوه من الفقهاء بل من كبار فقهاء الصحابة ومحدثيهم، وممن حفظ القرآن الكريم وتعلّمه وعلمه، ومن أهل الفتوى، وقد تولّى القضاء في فلسطين، وقد عرف عنه أنه لا ينتظر من يسأله عن الشريعة وأحكامها، بل كان يُبادر إلى الناس في أسواقهم؛

١. معجم رجال الحديث رقم ٢٣٩٢ : جندب بن جنادة. ١٢٤١: أسعد بن زرارة. ١٦٦٢: البراء بن مالك. وانظر تفسير القمي للآية: ٣٠ سورة الأنفال .

٢. سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢ : ٨ ، رقم ١.

ليبصّرهم بما يجب عليهم.

وراحوا ينقلون عنه روايات ومسائل كثيرة، له قرابة مئة وثمانين حديثاً أو أكثر في أبواب الأحكام والآداب والثواب.. وحدّث عنه كثيرون، منهم: أبو أمامة الباهلي، وأنس بن مالك وغيرهم. وذكرت لعبادة بن الصامت أكثر من ثلاثين مسألة في المغني.. ومما رواه عن رسول الله ﷺ أنه قال: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ. وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ!

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: إِذَا صَلَّى الرَّجُلُ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، وَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا - أَحْسَبُهُ قَالَ - وَالْقِرَاءَةَ فِيهَا، قَالَتْ: حَفِظَكَ اللَّهُ كَمَا حَفِظْتَنِي، وَإِذَا أَسَاءَ رُكُوعَهَا، أَوْ لَمْ يُتَمِّمْ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا، قَالَتْ: ضَيِّعَكَ اللَّهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي! قال: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَرَأَ، فَتَقَلَّتْ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ، فَلَمَا فَرَّغَ قَالَ: تَقْرَءُونَ؟ قُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا إِلَّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، فَإِنَّهُ لَا صَلَاةَ إِلَّا بِهَا.

وعنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خمس صلوات افترضهن الله على عباده، فمن جاء بهن لم ينقص منهن شيئاً استخفافاً بهن، فإن الله جاعل له يوم القيامة عهداً أن يدخله الجنة، ومن جاء بهن وقد نقص منهن شيئاً، لم يكن له عند الله عهد، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له».

وعنه عن رسول الله ﷺ: «ما من عبد يسجد لله عز وجل سجدة إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة..».

وعنه؛ قال رسول الله ﷺ: «جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى باب من أبواب الجنة، ينجي الله تبارك وتعالى به من الهم والغم».

للشهيد عند الله ستُّ خصال: يُعْفَرُ لَهُ بِأَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ. وَيَحِلُّ عَلَيْهِ حَلَّةُ الْكِرَامَةِ - أَوْ قَالَ حَلَّةُ الْإِيمَانِ - وَيُؤَمِّنُ مِنَ الْفِرْعِ الْأَكْبَرِ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُزَوِّجَ

من الحور العين!!

وعنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وأنَّ عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنَّ الجنة حقٌ والنار حقٌ أدخله الله تبارك وتعالى الجنة على ما كان من عمل.

حديث في فضائل مناسك الحجِّ وثوابها: ولهذا الحديث طرق، منها ما جاء في المعجم الأوسط عن عبادة بن الصامت؛ قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ فتحطأ إليه رجلاً من الأنصار، ورجلٌ من ثقيف، فسبق الأنصاريُّ الثقيفيُّ، فقال رسولُ الله ﷺ للثقيفيِّ: «إنَّ الأنصاريَّ قد سبقك بالمسألة».

فقال الأنصاريُّ: لعله يا رسول الله أن يكون أعجلَ منِّي، فهو في حلٍّ. قال: فسأله الثقيفيُّ عن الصلاة، فأخبره، ثم قال رسول الله ﷺ للأنصاريِّ: «إن شئتَ خبرتُك بما جئتَ تسألُ عنه، وإن شئتَ سألتني، فأخبرُ (فأخبرك) بذلك؟ فقال: يا رسول الله، تُخبرني. فقال: «جئتَ تسألني ما لك من الأجر إذا أمتَ البيتَ العتيقَ، وما لك من الأجر في وقوفك في عرفة، وما لك من الأجر في رميك الجمار، وما لك من الأجر في حلق رأسك، وما لك من الأجر إذا ودَّعتَ البيتَ». فقال الأنصاريُّ: والذي بعثك بالحقِّ، ما جئتُ أسألك عن غيره.

قال: «فإنَّ لك من الأجر إذا أمتَ البيتَ العتيقَ ألا ترفعَ قدماً أو تضعها أنتَ ودابتك إلا كُتبتَ لك حسنةٌ، ورفعتَ لك درجة. وأما وقوفك بعرفة فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول لملائكته: ياملأنكتي ما جاء بعبادي؟ قالوا: جاءوا يلتمسون رضوانك والجنة. فيقول الله عزَّ وجلَّ: فأني أشهدُ نفسي وخالقي أني قد غفرتُ لهم عدد أيام الدهر، وعدد القطر، وعدد رملِ عالمِ. وأما رميك الجمار فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا

أَخْفِي لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً مِّمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ^١.

وأما حلقك رأسك فإنه ليس من شعرك شعرة تقع في الأرض إلا كانت لك نوراً يوم القيامة، وأما البيت إذا ودعت فإنك تخرج من ذنوبك كيوم ولدتك أمك!^٢
وفاته رضوان الله تعالى عليه :

لم ينته الخلاف بينه وبين معاوية، بل اشتدَّ حتى بعد أن رُحل إلى المدينة، ويبدو أن ذلك أثر على علاقته بالخليفة، فعاد إلى حمص، ثم غادرها إلى فلسطين، فاستقرَّ فيها قاضياً، فهو يعدُّ أول من تولَّى قضاء فلسطين، حتى تُوفي في الرملة أو في القدس سنة ٣٤ هجرية عن اثنين وسبعين عاماً، ودفن ببيت المقدس، ويُقال: إنَّ له قبراً معروفاً هناك. لقد رحل هذا الصحابي الجليل بعد عمر طويل، وحياة حافلة بالإيمان والعلم والعمل، والجهاد قولاً وفعلاً، داعياً للمعروف ناهياً عن المنكر، متأماً لما آلت أمور الأمة المسلمة بسبب فساد الحاكم وظلمه.. فختمت حياته بذلك، ونختم مقاتلتنا بشيء ظريف تحدث هو عنه رضي الله عنه، وهي ما سينتهي إليه الجميع.

قال عبادة: ألا تروني لا أقوم إلا رفاً؟!^٣

الرفد: الإعانة؛ والمعنى أنه لا يستطيع القيام إلا أن يعان عليه.

ولا آكل إلا ما لُوقَّ لي - يعني لُبَّيْنٍ وسُحْنٍ - وقد مات صاحبي منذ زمان - يعني ذكره - وما يسرني أني خلوت بامرأة لا تحلَّ لي، وأنَّ لي ما تطلع عليه الشمس مخافة

١. سورة السجدة : ١٧ .

٢. انظر المغني، لابن قدامة ؛ مجمع الزوائد ؛ مسند أحمد، مسند الأنصار.. معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ، محمد سالم محيسن: رقم ١٥١ ؛ المعجم الأوسط، للحافظ الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ٣ : ١٦ ، رقم ٢٣٢٠ .

أن يأتيني الشيطان فيحركه عليّ، إنه لا سمع له ولا بصر!!

وبوصيته لابنه وقد حضرته الوفاة: عن الوليد بن عباد قال: دخلت على عبادة رضي الله عنه وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لم تطعم الإيمان، ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره! قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». يا بني إن متّ ولست على ذلك دخلت النار! وبوصيته الأخرى لابنيه وغيرهم: عن عبادة بن محمد بن عبادة بن الصامت: لما حضرت عبادة بن الصامت الوفاة قال: أفرشوا فراشي في الصحن، ثم اجمعوا لي مواليّ، وخدمي، وجيراني، فجمعوا له، فقال: إن يومي هذا لا أراه إلا آخر يوم يأتي عليّ من الدنيا، وأول ليلة من الآخرة، وإنه لا أدري لعله قد فرط مني إليكم بيدي أو بلساني شيء، وهو - والذي نفس عبادة بيده - القصاص يوم القيامة، وأحرج على أحد منكم في نفسه شيء من ذلك إلا اقتصّ مني قبل أن تخرج نفسي!

فقالوا: بل كنت والدًا، وكنت مؤدبًا. قال: وما قال لخدام سوءاً قط. فقال: أغفرتم لي ما كان من ذلك؟ قالوا: نعم.

فقال: اللهم اشهد.

ثم قال: أما الآن فاحفظوا وصيتي: أحرج على إنسان منكم أن يبكي عليّ، فإذا

١. انظر القرطبي في الجامع لأحكام القرآن، في تفسير الآية ٢٨ النساء: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾؛ وسير أعلام النبلاء، للذهبي ٢: ٨ رقم ١ والهامش .

خرجت نفسي، فتوضؤوا، ثم ليدخل كلُّ إنسانٍ منكم مسجداً فيصلِّي، ثم يستغفر لِعِبَادَةِ
ولنفسه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^١
ثم أسرعوا بي إلى حفرتي، ولا تتبعني ناراً، ولا تضعوا تحتي أرجواناً!^٢

فرضوان الله عليه في عباده الصالحين!



١. سورة البقرة : ٤٥ .

٢. تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للذهبي ٥ - رقم ٣١٥١ .